

## سُورَةُ الْمَلِكِ

مكية وهي ثلاثون آية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك»<sup>(١)</sup> وعن ابن عباس مرفوعاً: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿ تَبْرَكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١﴾

﴿ تَبْرَكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ ﴾ اليدُ هنا: كناية عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتیه من يشاء، وينزعه ممن يشاء<sup>(٢)</sup> ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة عليه، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكم البالغة.

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٩٣ وأبو داود في الصلاة رقم ١٤٠٠.  
(٢) الآية الكريمة: ﴿بيده الملك﴾ تمثيلٌ لعزته تعالى وجلاله، وتصرفه الكامل في جميع الأمور، كما نقول: الدولة بيد السلطان، أي هو المتصرف في شؤونها، قال ابن عباس في تفسير الآية: ﴿بيده الملك﴾ قال: يعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. اهـ وهو الصحيح في معنى الآية الكريمة.

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ  
الْغَفُورُ ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك، وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكم والمصالح، والمراد بالموت: الموت الطارئ، وبالحياء الحياة التي تكون قبل الموت، وقدم الموت لكونه السابق، لقوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل، ولأن الأشياء في الابتداء، في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة، وقيل: أراد موت الإنسان، وحياته بعد البعث من القبور، والموتُ نعمة كالحياة، لأنه الفاصل بين حال التكليف، وحال المجازاة، وهو القنطرة للعبور إلى دار الخلود، فإن الدنيا جسراً ومعبرٌ للآخرة ﴿ لِيَبْلُوكُمْ ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف بالأوامر والنواهي ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أخلصه وأصوبه، فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السُنَّة، والمقصد الأصلي من الابتلاء، هو ظهور إحسان المحسنين، مع تحقق أصل الإيمان، وفيه من الترغيب في الترقى إلى معارج العلوم، ومدارج الطاعات، والزجر عن نواقضها ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ  
الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أي الذي أبدع خلق السموات، فجعلها سبع سموات ﴿ طِبَاقًا ﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض، سماء فوق سماء ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل مخاطب ﴿ مِنْ تَفَوُّتٍ ﴾ أي من اختلاف، ومن عيب، وحقيقة التفاوت عدم التناسب من

الفوت، وقيل: التفاوت: الفطور، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾؟ فالمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أي كرّر النظر إلى السماء، فانظر إليها، مرة بعد مرة، متأملاً فيها، حتى يتضح لك ذلك ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾؟ أي صدوع وشقوق، جمع فِطْر، وهو الشَّقُّ، والمراد به الخَلَل.

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّرِينَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّرِينَ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل، والمراد بالثنوية التكرار والتكثير، كما في لبيك وسعديك، أي رجعة بعد رجعة، وإن كثرت ﴿يَنْقَلِبُ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي بعيداً ومحروماً من إصابته ما التمسه من العيب والخلل، كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة، وكثرة المراجعة، ولم ير فيها خلاً، لأن الله أتقنها وأحكمها.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بيان لكون خلق السماوات، في غاية الحسن، إثر بيان خلوها عن شائبة القصور، وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي وبالله لقد زيننا أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصْبِيحٍ﴾ أي بالكواكب المضيئة بالليل، إضاءة السراج، من النجوم السيارات والثوابت، تتراءى كأنها مركوزة فيها، مع أنها في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعرف مقدار سعته إلا الله رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى، هي رجم أعدائكم الشياطين، بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وهي النار الموقدة، فإن

قيل: إن الشهب كانت موجودة قبل بعثة النبي ﷺ، فكيف أصبحت رجوماً للشياطين؟ فالجواب عن ذلك: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي ﷺ قد توجد بسبب آخر، وهو دفع الجن عن استراق السمع، قيل للزهري: أكان يُرمى في الجاهلية بالشهب؟ قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ قال: غَلَطْتُ واشتد أمرها حين بُعث النبي ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمقرؤ.

﴿إِذَا الْقَوُوفُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾.

﴿إِذَا الْقَوُوفُ فِيهَا﴾ أي طرحوا في جهنم ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهيقًا﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمار ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه، هذا من فور الغضب، يقال: تركتُ فلاناً يفور غضباً، ويتأكد هذا بقوله تعالى:

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ

نَذِيرٌ﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي من شدة الغضب عليهم، يقال: فلان يتميز غيظاً إذا وصفوه بالإفراط فيه، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ وهو تمثيل لشدة اشتعالها ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتفريع، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أي ألم يأتكم رسول يخوفكم من هذا العذاب؟.

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

كَبِيرٍ ﴿٩﴾ .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أي قال كل فوج من الأفواج قد جاءنا نذير فأنذرنا، وتلا علينا ما نزل الله عليه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير، في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ على أحد ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار من الرسل، فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم من المعجزات ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عقل متأمل، ونفهم ونتفكر في حكمه تفكر المستبصرين ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الشرع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان .

﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ .

﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴾ بكفرهم، في تكذيبهم الرسل، حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ مصدر وقع موقع الدعاء، أي فبعداً لهم وهلاكاً، سحقهم الله سحقاً، وأبعدهم الله من رحمته، ومن دار كرامته ﴿ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ هم الشياطين، والداخلون في عدادهم من الكفار والفسقار .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، وكفوا عن المعاصي، قبل معاينة العذاب ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ﴾ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ﴾ بيان لتساوي السر والجهر، بالنسبة إلى علمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ (١) قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم، كي لا يسمع إله محمد، فيخبره بما تقولون، ف قيل لهم: أسروا ذلك القول، أو اجهروا به، فإن الله يعلمه، ولا تخفى عليه سبحانه خافية. واللفظ عام لجميع الخلق، أي فاحترزوا من المعاصي سرًا، كما تحترزون جهراً، وتقديم السر على الجهر، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر، إذ ما من شيء يُجهر به، إلا وهو مضمَر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فيتعلق علمه تعالى به ﴿ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بضمائرها، قبل أن تترجم الألسنة عنها، كأنه قيل: إنه تعالى مبالغ بمضمرات جميع الناس، وأسرارهم المستكنة في صدورهم.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾؟ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، أي ألا يعلم السر والجهر، من أوجد جميع الأشياء التي هما من جملتها؟ ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكداً للإنكار، اللطيف أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائق الأمور.

(١) سورة الرعد، آية: ١٠.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا ﴾ أي لينة سهلة، يسهل عليكم السلوك فيها ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي في جوانبها وفي جبالها وطرقها ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أي المرجع، فيسألکم عن شكر ما أنعم به عليكم .

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ ﴾ يعني الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم، أو الله على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه، وقال ابن عباس: «عقاب من في السماء، وهو متعال عن الخلق»<sup>(١)</sup> ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ﴾ أن يغور بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً، تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه، لكفرانكم تلك النعمة ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي تضطرب وتتحرك، على خلاف ما كانت ثابتة عليه .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ حجارة من السماء، كما

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى ٣/١٤٣: ويصان جلّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله تعالى: ﴿ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ ﴾ أن السماء ثقله - أي هو محصور فيها - أو تظله، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض!! .

فعل بقوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فَسْتَعْمُونَ﴾ عن قريب عند الموت، وفي الآخرة ﴿كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ كيف إنذاري وعقابي للمكذبين؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة، كقوم نوح، وعاد، وأضرابهم، والالتفات لإبراز الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ إذ أهلكتهم بإنزال العذاب، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول ﷺ وتشديد التأكيد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا؟ ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَفَّتْ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن، وهو السر في إثارة «يقبضن» الدال على التجدد على قابضات، والطيران في الهواء، كالسباحة في الماء ﴿مَا يَمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الشامل برحمته لكل شيء، وإلا فالثقل يتسفل طبعاً ولا يعلو ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾ تبكيت لهم، بنفي أن يكون لهم ناصر من عذابه تعالى، أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد الله تعالى إهلاككم؟ هل آهتكم المزعومة تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟

و«أم» منقطعة مقدرة ببل، المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل، فيما يشاهدونه من أحوال الطير، إلى تبييت آخر ﴿يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي ينصركم متجاوزاً نصر الرحمن؟ فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟﴾ ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما هم إلا في غرور، في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب، بحفظ آلهتهم لهم، وزعمهم هذا ضلال واضح بين.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله عز وجل ﴿رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر، وإنبات الزرع، فمن يستطيع أن يمنحكم أسباب الرزق، إن منعها الله عنكم؟ هل هناك إله غير الله يقدر عليه؟ وأسباب الرزق متعددة: الماء، والهواء، والشمس، والرياح، والشجر، والثمر، وكلها بيد الخلاق جلّ وعلا، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿بَلْ لَجُّوا﴾ أي تمادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ أي في عناد واستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا، والنفور بسبب جهلهم بالدين، والمعنى: بل تمادى الكفار في الطغيان، وأصروا على الكفر والعصيان.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢).

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ هذا مثل ضربه الله للمشرك والموحد، توضيحاً لحالهما، والفاء لترتيب سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وعدم اهتدائهم إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوعر طريقه، واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمته، وهو الكافر الذي أكب على الكفر والمعاصي ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي يمشي قائماً معتدلاً، يبصر الطريق سالماً من العثر والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على

طريق مستو لا عوج فيه، ولا انحراف؟ وهو المؤمن المستمسك بدين الإسلام<sup>(١)</sup>.

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أي خلقكم خلقاً بديعاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ لتسمعوا آيات الله، وتتعضوا بمواعظها ﴿ وَالْأَبْصَرَ ﴾ لتنظروا بها آثار قدرته، وترى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لتفكروا بها وتعتبروا، خصّها بالذكر، لأنها آيات العلم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي باستعمالها فيما خلقت لأجله، فشكر نعم الله، صرفها في مرضاته.

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي خلقكم وبثكم وكثركم فيها لا غيره ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة للجزاء.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾؟ أي متى

(١) هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة التعبير، وكأنه يقول: هل من يمشي كالداية، منكس الرأس، أعمى القلب والعين، لا يبصر يمينا ولا شمالا، ولا يرى ما أمامه، فهو يخبط خبط عشواء، ويتعثر بين حين وحين في مشيه، لأنه لا يبصر الطريق، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه فهو آمن من العثار، لأنه يمشي في وضوح النهار، يسير على طريق مستقيم، لا اعوجاج له ولا التواء؟ أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ قال ابن عباس: هذا مثل لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى!!

يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ كما ينبيء عنه قوله سبحانه ﴿وإليه تحشرون﴾ أو ما وُعدوا به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، والجواب محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به، فبينوا لنا وقته؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٦٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي العلم بوقته عند الله عز وجل، لا يطلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي مخوف أُنذركم عذاب الله، ووقوع الموعود لا محالة ﴿مُبِينٌ﴾ أي أبين لكم الشرائع.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٦٧).

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريباً منهم ﴿سَيِّتَتْ﴾ أي ساءت رؤية الموعود ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واسودت بأن علتها الكتابة، وغشيتها القتر، وظهرت عليها آثار الاستياء من الذل والهوان ﴿وَقِيلَ﴾ تشديداً لعذابهم، والقائلون هم الزبانية ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي تسألون تعجيله، إنكاراً واستهزاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ﴾ (٧٨).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، والتعبير عنه بالإهلاك، لما أنهم كانوا يدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته،

متربصون لإحدى الحسنين ﴿فَمَنْ يُحْيِرْ﴾ ينجي ﴿الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، أي من يحميكم من عذاب الله المؤلم الوجيع؟ ومن الذي يجيركم وينجيكم من غضبه وانتقامه؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم من عذاب الله؟.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٩).

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، مولي النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا به وحده، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي فسوف تعلمون من هم أهل الشقاء والضلالة، منا ومنكم؟ وهذا تهديد شديد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أي ذاهباً في أعماقها ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي جارٍ متدفق، فائض سهل المأخذ، فلا بد أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون الأصنام شريكاً له؟ تليت هذه الآية عند ملحد، فقال: نأتي به بالمعول، فنام تلك الليلة ثم استيقظ وقد ذهب ماء عينه!! والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

\*\*\*

# سُورَةُ الْقَلَمِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾

﴿تَّ﴾ بالسكون على الوقف، من أسماء الحروف الهجائية المقطعة، مثل: ألف، ولام، وميم، ذُكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر مع ذلك عاجزون عن الإتيان بمثله، وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت، فمشكلٌ ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الواو للقسم، وأريد بالقلم الجنس، لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزية، سوى كونه آلة لتحرير كُتب الله عزَّ وجلَّ، لكفى به فضلاً، وموجباً لتعظيمه<sup>(١)</sup> ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

(١) في القسم بالقلم والكتابة، إشادة بفضل العلم والعلماء، وتنبيه على قيمة الكتابة والدراسة، فإن القلم أخو اللسان، وهو نعمة من الرحمن على عباده، فالإنسان من بين سائر المخلوقات، هو الذي خصَّه الله وشرفه بمعرفة القراءة والكتابة، ليفصح عمَّا في ضميره، ولا يمكن لسائر الحيوانات أن تتفاهم عن طريق المراسلة والكتابة، إنما تتفاهم بالأصوات، وحسبك دليلاً على شرف القلم، أن الله عزَّ وجلَّ أقسم به هنا، كما أن أول آيات الوحي المنزَّل فيها إشادة بالقراءة والكتابة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوة، أنت يا محمد بريء من الجنون، وهو جواب لقولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ إنه تعالى وصفه ﷺ بثلاثة أنواع من الصفات:

الأولى: نفي الجنون عنه، بنعمه الظاهرة، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية وللاتصاف بكل مكرمة، فوجود هذه النعم ينافي حصول الجنون.

والثانية: الأجر الكبير الدائم.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿٣﴾

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي إن لك في دعاء الخلق إلى الله تعالى، المنزلة الرفيعة العالية، والثواب الكبير غير المقطوع، وإحراز هذا المقام ينافي الجنون.

والثالثة: الخلق العظيم الذي خصَّ به الرسول ﷺ.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٤﴾

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أنت يا محمد على جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخلق الكريم، ولقد نسبوه إلى الجنون - وحاشاه - حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية، من حصانة العقل، ورزانة الرأي، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة، وصفها الله تعالى بأنها عظيمة، وفيها دققة أخرى، وهي كلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ أنه ﷺ مستعلٍ على خلقٍ عظيم، كما رُوي عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً.» الحديث. وحقاً!! لقد تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم

فالصدق، والبر، والحلم، والحياء، والصبر، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والعفة، والوفاء، كل أولئك كانت من صفاته البارزة، التي قرّبت به إلى القلوب، فتعلّق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

### ﴿ فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ ﴾

﴿ فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ ﴾ أي عن قريب ترى ويرون من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ وهذا وعد له، ووعد له، والمراد به يوم القيامة، سيظهر بجلاء أمرك وأمرهم، وقيل: في الدنيا بظهور الإسلام، واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيباً ومعظماً في قلوب العالمين.

### ﴿ يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾

﴿ يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾؟ أي المجنون، والباء مزيدة، أو بأي الفريقين بفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنَ الْكَذَّابُ الْأَشْرُّ ﴾.

### ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ تعليل لما قبله من ظهور جنونهم، بحيث لا يخفى على أحد، أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال، متوجهاً إلى الشقاوة الأبدية، وهذا هو المجنون الذي لا يفرّق بين النفع والضرر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء المهتدين إلى سبيله، الفائزين بكل مطلوب، والناجين من كل محذور، فيجزي كلاً من الفريقين، حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿ هو أعلم ﴾ لزيادة التقرير.

﴿ فَلَا تُطْعِ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ فَلَا تُطْعِ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي كفار مكة، وهذا تهيج له للتصميم على معاداتهم، فقد أرادوا منه أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم!! والمعنى: دم يا محمد على ما أنت عليه، من عدم طاعتهم، وإنما عبّر بالطاعة للمبالغة في الزجر، والنهي عن مداونتهم ومداراتهم، استجلاباً لقلوبهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿ وَدُّوا لَوْ نُودُوهُمْ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ وَدُّوا لَوْ نُودُوهُمْ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي تمنوا لو تلبين لهم يا محمد، وترك بعض ما لا يرضونه، وتسامحهم في بعض الأمور، فهم يدهنون حينئذ طمعاً في إدهانك.

﴿ وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف، لكونه أدخل في الزجر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير الرأي والتدبير، من المهانة وهي الحقارة، نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي عيَّاب، طعان، مغتاب ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية والإفساد.

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيسٍ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيل ممسك عن الإنفاق، ويمنع الناس عن الخير والإنفاق ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز في الظلم حدّه ﴿ أَنِيسٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿عُتِّلَ﴾ غليظ، جاف، لثيم النفس ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعدما عُدَّ من الصفات المذمومة ﴿زَنِيمٌ﴾ هو ولد الزنا، روي أنه دخل على أمه، وقال لها: «إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاّ ضربت عنقك!! فقالت: إن أباك عنيّن، وخفتُ أن يموت ويذهب ماله إلى غيره، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي!! ولا غرابة فالنطفة إذا خبثت خبث الناشيء منها.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لا تطعه مع هذه المثالب والمعائب، لأن كان ذا مال وبنين، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ أي يقول عن القرآن العظيم: إنه خرافات وأباطيل الأولين!!

﴿سَنَسِمْهُ عَلَى الْمُرْطُورِ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿سَنَسِمْهُ عَلَى الْمُرْطُورِ﴾ كَتَى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، لأن الخرطوم للخنزير، أي سنكويه على أنفه، مهانة له، وعلماً يُعرف به، وتخصيصُ الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أشبع وأشنع.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ أي أهل مكة بالقحط، بدعوة رسول ﷺ ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ﴾

﴿ الْجَنَّةِ ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة، كانت لأبيهم هذه الجنة، قرب صنعاء باليمن، فكان يأخذ منها قوت سنة، ويتصدق بالباقي، وكان ينادي الفقراء وقت الصَّرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل، وما أخطأه القَطاف من العنب، فكان يجتمع لهم شيء كثير، فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا الأمر، فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَصَرْمُهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستشنون حصاة المساكين، كما كان يفعله أبوهم.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ أي على الجنة ﴿ طَائِفٌ ﴾ أي فجاءها بلاء من السماء ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ غافلون عما جرت به المقادير، والطائف لا يكون إلا ليلاً، أي طرقها طارقٌ من عذاب الله. قال الكلبي: أرسل الله تعالى عليهم ناراً، فأحرقت الشجر والثمر.

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ كالبستان الذي صرمت ثماره، بحيث لم يبق منها شيء، فعيل بمعنى المفعول.

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ عند الصبح الباكر.

﴿ أَنْ أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ أَنْ أَعْدُوا ﴾ أي اخرجوا في الصباح الباكر، قبل أن ينتبه الفقراء، ومعنى الغدوّ: الذهاب في الصباح المبكر ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ يعني الثمار، والزرع، والأعناق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴾ قاطعين له .

﴿ فَأَنْطَلِقُوا وَهُمْ يَنْخَفُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ فَأَنْطَلِقُوا ﴾ أي ذهبوا ﴿ وَهُمْ يَنْخَفُونَ ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، لئلا يسمع المساكين .

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا ﴾ أي الجنة ﴿ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أي لا تمكنوه من الدخول .

﴿ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرٍ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ ﴾ أي على قصد وعزم، وقيل: على نكدي من حاردت السنّة إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبل إذا منعت درّها ﴿ قَدِيرٍ ﴾ عند أنفسهم على صرامها .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي أول ما رأوها محترقة ﴿ قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴾ أي ضللنا طريق جنتنا وما هي بها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ بَلْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ ﴾ أي حرمانا خيرها لجنايتنا على أنفسنا .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٢٨)

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعقلهم وأعدلهم رأياً ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟ .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٢٩)

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي بمنعنا المساكين، فتكلموا بعد خراب البصرة - أي البستان -، وأقرؤوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴾ (٣٠)

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت، ومنهم من أنكره، فأصبح كل واحدٍ يحيل باللائمة على الآخر!! ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحدَّ .

﴿ قَالُوا يَا بُولِئَانَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٣١)

﴿ قَالُوا يَا بُولِئَانَا ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي متجاوزين حدود الله، في حق الفقراء والمساكين، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿ عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (٣٢)

﴿ عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا ﴾ أي يعطينا بدلاً منها، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خَيْرًا مِنْهَا ﴾ أي من هذه الجنة ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي طالبون الخير، وراجون العفو منه تعالى .

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣).

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي ذكرناه، نعذب من سلك سبيلهم ﴿ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأشدُّ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه أكبر، لاحترزوا عما يؤديهم إليه.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٢٤).

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي جنات ليس فيها إلاَّ التنعم، الخالص عن شائبة الزوال، وما ينغصه من الكدِّ والتعب.

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥).

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ تقرير لما قبله، وردُّ لما يقوله الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صحَّ أنا نُبعث، لم يكن حالنا وحالهم، إلاَّ مثل ما هو في الدنيا، يعطينا الله ويكرمنا، كما أكرمنا في الدنيا.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٢٦).

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟! تعجب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعاراً بأنه صادرٌ من اختلال فكر وعقل، وهو التسوية بين المطيع والعاصي.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢٧).

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرؤون.

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ (٢٨).

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ما تتخيرونه وتشتهونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَّ عَلَيْنَا بَلَاغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَّ عَلَيْنَا ﴾ أي عهود مؤكدة بالآيمان ﴿ بَلَاغَةٌ ﴾ متناهية في التوكيد ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ إن لكم لما تحكمون أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدها، حتى نعطيكم ما تحكمون، أم هو مجرد الافتراء على الله؟! .

﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ (٤١)

﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي سلمهم مثبتاً لهم ﴿ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي كفيل وضامن؟ .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٤١)

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه تعالى في هذه الآية على أن ليس لهم شيء، يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٤٢)

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ الجمهور على أن الكشف عن الساق، عبارة عن شدة الأمر وصعوبته، والمعنى يوم يشتد الأمر ويصعب، ولا كشف ولا ساق، ولكن كنى بها عن الشدة، ومثله قول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيس ﴿ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ أي يدعى الكفار إلى السجود لله رب العالمين، لا تكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً، على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، فلا يقدر على الانحناء أو السجود.

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ تَرَهِقُهُمْ ﴾ أي يغشاهم وتلحقهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ أي صَغَارٌ وهوان ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى السُّجُودِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴾ أي وهم أصحاب متمكنون منه، فلا يجيئون إليه، وكذلك يدعون إلى الصلاة، بالأذان والإقامة في الجماعة، فلا يلبثون إليها، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخلّ بيني وبينهم، ولا تُشغل قلبك بهم، فسأنتقم لك منهم، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لأُكفيك شرّه. وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج خطوةً خطوة، يقال: استدرجه إليه استنزله درجةً درجةً، حين يورّطه فيه، واستدراجهم بالإمهال، وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إنه استدراج بل يزعمون أنه إيثار على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم.

﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم فلا أعجلهم بالعقوبة، ليزدادوا إثماً ﴿ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قوي شديد، لا يدفع بشيء، وتسميته كيداً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً، ماکراً، مستدرجاً، لأن صفات النقص لا تنسب إليه تعالى، وأسمائه توقيفية.

﴿ أَمْ تَسْتَأْجِرُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرُورٍ مُثْقَلُونَ ﴾؟ أي هل تطلب منهم أجراً حتى يثقلهم ذلك ويمنعهم من الإيمان؟ .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يحكمون .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم، وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ أي كيونس عليه السلام، في العجلة والغضب على القوم ﴿ إِذْ نَادَى ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً، من كظم السقاء إذا ملاءه، أي لا يكن حالك كحال وقت نداءه، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلى ببلائه .

﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ رِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ رِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي رحمة، وهو التوفيق للتوبة، وقبولها ﴿ لَئِيدٌ ﴾ أي لطح من بطن الحوت ﴿ بِالْعُرَاءِ ﴾ بالفضاء الواسع ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي وهو ملام على ما ارتكب، يعني لولا هذه النعمة، لئيد بالعرء مع الدم له، لكن الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الدم .

﴿ فَأَجْنِبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ فَأَجْنِبَهُ رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه واختاره لنفسه ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي جعله من الكاملين في الصلاح .

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْزُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ

لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْزُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي إنهم من شدة عداوتهم لك، ينظرون إليك ويكادون أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكونك بنظرات مسمومة قاتلة لشدة بغضهم، والإصابة بالعين حق، ومن الناس من أنكر ذلك، ولا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، فلاحتمال العقلي قائم، والدلائل السمعية ناطقة بذلك، روى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حقٌّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»<sup>(١)</sup> وقيل: العين حقٌ تدخل الرجل القبر، والجمل القدر، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ عليه هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي وقت سماعهم القرآن تتلوه عليهم، لأنهم كانوا يكرهون سماعه أشد الكراهية، ويحدون النظر إليه ﷺ بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أمره ﷺ، وجهلهم بحاله ﴿إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنفير الناس عنه، وحيث كان مدار حكمهم الباطل، ما سمعوه منه ﷺ، ردَّ الله ذلك ببيان علو شأنه، فقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وليس هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي موعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي للإنس والجن، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن للجنون؟ والآية مفيدة لبطلان قولهم، وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوّه ذلك، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

\* \* \*

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٨٨ في باب الطب، والترمذي رقم ٢٠٦٣.

obeikandi.com

## سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مكية وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ ﴾ .

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ الساعة الواجبة الوقوع يعني القيامة، التي هي آتية لا ريب فيها، التي تتحقق فيها الأمور، من الحساب والجزاء.

﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ الأصل الحاقة ما هي؟ أي أي شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير، لزيادة التهويل.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أي أي شيء أعلمك ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ تأكيد لهولها، ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها وشدتها، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد لأنها أعظم من ذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ أي بالحاقة، فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تفرع الناس بالأفراع والأهوال،

فلماً ذكرها وفخّمها، ذكر من كذب بها، وما حلّ بهم، تذكيراً لأهل مكة،  
وتخويفاً لهم، من انتقام الله عزّ وجلّ منهم، لتكذيبهم سيد المرسلين.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة،  
وهي الصيحة الشديدة، كما قال سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً  
فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي ريح شديدة العصف، كأنها  
عنت على خزنتها، فلم يستطيعوا ضبطها.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى  
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلّطها عليهم بالقدرة القاهرة ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ  
أَيَّامٍ ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وهي أيام العجوز  
سميت بذلك لأن عجوزاً من عاد، توارت في سرب، فانتزعتها الريح  
فأهلكتها ﴿ حُسُومًا ﴾ أي متتابعة متوالية، لا تفتت ولا تنقطع، تستأصل  
الناس استئصالاً ﴿ فَتَرَى ﴾ أيها المخاطب ﴿ الْقَوْمَ ﴾ إذا كنت حاضراً حينئذ  
﴿ فِيهَا ﴾ في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَى ﴾ موتى قد صرعهم الموت،  
فأصبحوا جثثاً هامدة، جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي يشبهون ﴿ أَعْجَازُ ﴾ أصول  
﴿ نَخْلٍ ﴾ جمع نخلة ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ بالية وساقطة على الأرض.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم، أو من نفس باقية؟ .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ أي من تقدّمه من الأمم ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ أي قوم لوط، وهم الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ولذا سميت بالمؤتفكات ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي بالأفعال ذات الخطأ العظيم، وهي الشرك، والتكذيب بالبعث .

﴿ فَعَصَا أَرْسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّايِيَّةً ﴾ .

﴿ فَعَصَا أَرْسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿ فَأَخَذَهُمُ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَخَذَةً رَّايِيَّةً ﴾ أي زائدة شديدة، كما زادت قبائحهم في القبح .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُوفِيَ الْجَارِيَةَ ﴾ .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أي ارتفع وزاد عن حدّه وقت الطوفان، بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ﴿ حَمَلْنَا كُوفِيَ الْجَارِيَةَ ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، والمراد بحملهم فيها، رفعهم فوق سطح الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، إنما السفينة سببٌ صوري .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ ﴾ .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ ﴾ أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ أي عبرة

وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكّره وإشاعته، والتفكير فيه، والوعوي: أن تحفظ الشيء في نفسك، والإيعاء أن تحفظه، في غيرك، وَعَيْتُ العلم والحديث وعياً، أي حفظته.

﴿فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى، وهو شروع في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عِظَم شأنها.

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي قلعت ورفعت عن أماكنها، بمجرد قدرة الله تعالى، وارتطم بعضها ببعض ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دُقَّتَا وكُسرتَا، أي فضربت الأرض والجبال إثر رفعهما، بعضها ببعض، ضربة واحدة، فيصير الكل هباءً منبثاً، وذرات متناثرة، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف بحال الرجال في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي نزلت النازلة، وقامت القيامة.

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي فُتحت أبوابها لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة، ساقطة القوة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على جوانبها، جمع رجا بالقصر:

الناحية، وجمعه أرجاء، مثل سبب وأسباب، قال الضحاك: تكون الملائكة على حافظتها، حتى يأمرهم الرب تبارك وتعالى، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ من الملائكة، روي أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية وعن ابن عباس والضحاك ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال بعضهم: وجود العرش لبيان عظمته تعالى، لا لاحتياجه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش، فالعرش والكرسي مظاهر عظمة الله وجلاله، فعلمنا أنه تعالى خاطبهم فيما يتعارفون، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه هو الكعبة المشرفة، وجعل في ركن البيت حجراً، وهو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس أنه عز وجل مسكنه في البيت، ويمينه فيه، وهو تمثيل لعظمته تعالى، بما يشاهد من أحوال السلاطين، يوم خروجهم على الناس، للقضاء العام، وإلاً فشؤونه سبحانه أجل من كل ما تحيط به تلك العبارة والإشارة.

### ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، أي تسألون وتحاسبون، عبّر عنه بذلك، تشبيهاً بعرض السلطان العسكر، لتعريف أحوالهم، وهذا - وإن كان بعد النفخة الثانية - لكن لما كان اليوم، اسماً لزمان متسع، تقع فيه النفختان، والصعقة، والنشور، والحساب، صَحَّ جعله ظرفاً للكُلِّ ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على ملك الملوك جلّ وعلا، غير خاف عليه تعالى سرٌّ من أسراركم، وإنما العرض لإفشاء الحال، والمبالغة في العدل، وفيه أعظم الزجر والوعيد، وهو خوف الفضيحة.

### ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أُمَّرَةٌ وَأَكْنَابِيَةٌ﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض ﴿فَيَقُولُ﴾ سروراً به

وابتهاجاً، لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته وأقربائه ﴿هَاقُمُ﴾ اسم فعل أمر أي خذوا ﴿أَقْرَأُوا كِتَابِيَّة﴾ والهَاءُ فيه وفي حسابيه، وماليه، وسلطانيه، للسكت، تثبت في الوقف، وتسقط في الوصل، واستحسن الوقفُ عليها.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ حِسَابِيَّة﴾.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ حِسَابِيَّة﴾ أي علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب، يقوم مقام العلم، في العبادات والأحكام، أي إني كنت أظن أنني ألاقى حسابي، فيؤاخذني ربي بسيئاتي، فقد تفضل عليّ بالعفو، ولم يؤاخذني بها، فخذوا اقرأوا كتابيه، قال تعالى:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا، يرضى بها صاحبها، لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، فالشيء إنما يكون مرضياً به، إذا كان مشتملاً على هذه الصفات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة لأنها في السماء، أو الأبنية.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قُطْف، وهو ما يجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة من مريدها، ينالها القائم، والفائد، والمتكيء، ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ والجمع باعتبار المعنى ﴿هَنِيئًا﴾ أي أكلاً وشرباً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة، وكلُّ عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك فهو سلف ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيهِ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، ولما حصل من الخجل والافتضاح ﴿يَلَيِّنَنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيهِ﴾ وهذا ينبّهك أن العذاب الروحاني، أشدُّ من العذاب الجسماني.

﴿وَلَرَأُوتَ مَا حَسَابِيهِ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَلَرَأُوتَ مَا حَسَابِيهِ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي .

﴿يَلَيِّنَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿يَلَيِّنَهَا﴾ يا ليت الموت منها ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه والضمير في ﴿يا ليتها﴾ يرجع للحياة الدنيا، أي يا ليت الحياة الدنيا، كانت الموتة النهائية، ولم أخلق حياً، تمنى الموت لأنه رأى تلك الحالة، أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ﴾ أي لم ينفعني ما جمعته في الدنيا من المال والأتباع، على أن «ما» نافية، أو استفهامية للإنكار، أي أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار؟ .

﴿ هَلَاكٌ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ (٢٩)

﴿ هَلَاكٌ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ أي زال عني سلطاني، فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

﴿ خَذُوهُ فَعَلُوهُ ﴾ (٣٠)

﴿ خَذُوهُ فَعَلُوهُ ﴾ أي شدوه بالأغلال، فاجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ تَرَأَى الْجَحِيمَ صَلْوُهُ ﴾ (٣١)

﴿ تَرَأَى الْجَحِيمَ صَلْوُهُ ﴾ أي أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس، ليكون الجزاء على وفق المعصية.

﴿ تَرَفُّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٣٢)

﴿ تَرَفُّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ وهي حلقات منتظمة، كل حلقة منها في حلقة ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ أي طولها بذراع المَلَك، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَفْزِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ يريد به مرات كثيرة، قال الحسن: الله أعلم بأي ذراع ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي فادخلوه فيها، بأن تلقوه على جسده، وهو مرهق لا يقدر على حركة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣٣)

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ تعليل، وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة، فمن تعظم على الله، استوجب أعظم العقوبات.

﴿ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (٣٤)

﴿وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله، وذكر الحوض للإشعار بأن تارك الحوض بهذه المنزلة، فكيف تارك الفعل وتخصيص الأمرين بالذكر، لأن أقبح الذنوب: الكفر بالله، وأشنع الرذائل: البخل وقسوة القلب، وفيه دلالة على عظم جرم حرمان المساكين، لأنه تعالى عطفه على الكفر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يحميه ويرفع عنه ما يحترق له قلبه، لأن الأولياء يفرّون منه، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ غسالة أهل النار، من الغسل، والنون زائدة، وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم<sup>(٢)</sup>، وقيل: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي الكافرون، الذين يتعدون حدود الله.

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) إن قلت: كيف قال هنا ﴿ولا طعامٌ إلا من غسلين﴾ وقال في موضع آخر ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي آخر ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فالجواب: إن العذاب أنواع، والمعدبون طبقات، فمنهم من يكون طعامه الغسلين، ومنهم من يكون طعامه الزقوم ومنهم طعامه الضريع، ويمكن أن يكون طعامهم جميع ذلك، فتارة يأكلون من هذا، وأخرى من ذلك، والله أعلم.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ \* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ \* بالمشاهدات والمغيبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ ﴾ \* أي القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ \* على الله، هو محمد ﷺ يبلغه عن الله، فالمراد بالرسول هنا النبي ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، على معنى أن الذي نزل بالقرآن من عند الله هو جبريل، والقول الأول هو الأظهر، لأن الله تعالى ذكر بعده، أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر، والكهانة، بل كانوا يصفون به الرسول ﷺ، فهو كلام الله أظهره في اللوح المحفوظ، وكلام الرسول ﷺ بمعنى أنه أظهره، وقرأه على الخلق.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ \* كما تدعون تارة ﴿ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾ \* إيماناً قليلاً.

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ﴾ \* كما تدعون تارة أخرى ﴿ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴾ \* أي تذكراً قليلاً، والقلة في معنى العدم، يقال: هذه الأرض قلما تنبت، أي لا تنبت أصلاً والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون أصلاً.

﴿ نَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ نَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ \* أي تنزيل من عند الرحمن، رب الخلق أجمعين .

﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴾ أي ادعى علينا شيئاً لم نقله، سُمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه . .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفضع ما يفعله الملوك، وهو أن يأخذ الجلاد بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه، وقال ابن عباس ﴿ باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ ﴾ الخطاب للناس ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن المقتول ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ أي دافعين، أي ليس أحد منكم يحجزه ويمنعه منّا .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَلْمُنْتَقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَلْمُنْتَقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أي نعلم من يكذب بالقرآن من المجرمين، فيجازيهم على تكذيبهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ في الآخرة إذا رأوا ثواب المؤمنين وسعادتهم في الجنة .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ القرآن ﴿ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ لعين اليقين لا يحوم حوله ريب .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فسبح بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له تعالى عن افتراءات أهل الضلال، و عما يقوله هؤلاء السفهاء، والله أعلم بمراده .  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،  
والحمد لله رب العالمين .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

\* \* \*

## سُورَةُ الْمَعْلَاقِ

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ (١)

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ أي استدعاه، والسائل هو «النضر بن الحارث» فإنه قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو أبو جهل فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء<sup>(١)</sup>، وصيغة الفاعل للدلالة على تحقق وقوعه.

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ (٢)

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي دعا للكافرين واستعجل بعذاب واقع على الكفار ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ أي ليس لذلك العذاب رادٌّ إذا نزل.

(١) استعجل مشركو قريش نزول العذاب عليهم، وطلبوا من الرسول ﷺ حين خوفهم عذاب الله، أن يعجل لهم العذاب، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء كما قال سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ فنزل أول هذه السورة، رداً على أولئك السفهاء.

﴿ مِنْكَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ .

﴿ مِنْكَ اللَّهُ ﴾ أي واقع من عند الله ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، بالأوامر والنواهي، وتنزل بأمره سبحانه ووحيه .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

﴿ تَعْرُجُ ﴾ أي تصعد ﴿ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ أي جبريل عليه السلام زعيم الملائكة ورئيسهم ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه سبحانه، ومهبط أمره، وقيل هو من قبل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي إلى أمر ربي ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ مما يعدّه الناس، وهو بيان لغاية طوله، بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ متعلقٌ بواقع، فالمراد به يوم القيامة، واستطالته إمّا لأنه كذلك في الحقيقة، لأن يوم القيامة له أول، وليس له آخر، أو لشدته على الكفار، وأياً ما كان، فذلك في حق الكافر، أمّا في حق المؤمن فلا، لما روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا»<sup>(١)</sup>.

﴿ فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ .

﴿ فَأَصْبِرْ ﴾ متعلق بسأل سائل، لأن استعجال العذاب من الكافرين،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٧٥/٣ والبيهقي، وابن حبان، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٦٤/٦ .

على وجه الاستهزاء والتكذيب، وكان ذلك يضجر رسول الله ﷺ، فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولا شكوى.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ .

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ مستحيلًا أو بعيدًا عن الإمكان، فلذلك يسألون به.

﴿وَنَزَلَهُ قَرِيبًا﴾ .

﴿وَنَزَلَهُ قَرِيبًا﴾ أي كائنًا لا محالة، هينًا في قدرتنا، والجملة تعليلٌ للأمر بالصبر.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ .

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه يوم تصبح السماء سائلة كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، ويكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ .

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألوانًا، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا فُتَّت وطُيِّرَتْ في الجوّ، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ .

﴿وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريبًا عن أحواله، ولا

يكلّمه، لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ الآية.

﴿يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ يَبْصُرُونَ يَوْمَ يَبْصُرُونَ يَوْمَ يَبْصُرُونَ يَوْمَ يَبْصُرُونَ﴾ (١١)

﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي يبصر بعضهم بعضاً، فيرى الرجل أخاه وصديقه، فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم من التساؤل، إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ﴿يَوْمَ يَبْصُرُونَ﴾ أي يتمنى المشرك وقيل كل مذنب، وهو مستأنف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه، فضلاً أن يهتم بحاله، ويسأل عنها ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ.

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ (١٢)

﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ أي أخيه الذي ولدته أمه.

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ (١٣)

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الأذنين ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أي تضمه في النسب إليها.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (١٤)

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ثم للاستبعاد، يعني لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيهم ذلك لفعله، وهيئات.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْيَأُ﴾ (١٥)

﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم وتأنيب له، ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه  
﴿إِنَّمَا﴾ أي النار، دلّ ذكر العذاب عليها ﴿لَظَى﴾ وهي عَلمٌ للنار، منقول  
من اللَّظَى بمعنى اللهب.

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾ (١٦).

﴿نَزَاعَةٌ﴾ قَلَاعَةٌ ﴿لِلشَّوَى﴾ أي أطراف الإنسان كاليدين، والرجلين،  
أو جمع شِوَاة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧).

﴿تَدْعُوا﴾ بأسمائهم يا كافر، يا منافق، إِلَيَّ إِلَيَّ<sup>(١)</sup> ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق  
﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة، فكان عاصياً فاجراً.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (١٨).

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدّ حق الله فيه،  
وتشاغل به عن الدين، وعبادة ربّ العالمين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي شديد الحرص، قليل الصبر، ويفسره  
الآتي، وهو قوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠).

(١) قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح فصيح، تقول:  
إِلَيَّ يا كافر، إِلَيَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحَبَّ - اهـ تفسير ابن كثير.

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي الضُّرُّ ﴿ جُرُوعًا ﴾ أي يكثر الجزع والضجر.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٢١).

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ السعة ﴿ مَنُوعًا ﴾ أي كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل الله عليه، فيشح ويبخل.

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ (٢٢).

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ استثناء من المطبوعين على القبائح الماضية.

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٢٣).

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ ﴾ أي الصلوات الخمس المفروضة ﴿ دَائِمُونَ ﴾ أي لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢٤).

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ أي نصيب معيّن، هي الزكاة لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤديها في أوقات معلومة.

﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴾ (٢٥).

﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل لحاجته ﴿ وَالْمَحْرُورِ ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٢٦).

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء، يصدقون بأعمالهم بالطاعات البدنية والمالية، طمعاً في المثوبة الأخروية.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي خائفة ألا يتقبل الله عملها الصالح.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه جلّ وعلا، فالأمور بخواتيمها، والخشية من الله دليل الإيمان ﴿ وخائفون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ يحفظونها عن الزنى والفواحش .

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي غير مؤاخذين لأنها فيما أباحه الله لهم .

﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين، فأولئك هم المعتدون، المجاوزون الحدّ في الطغيان والإجرام .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أي يؤدّون الأمانات، ويحفظون العهود .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣٣)

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ يقيمونها بالعدل، بلا ميل إلى قريب أو شريف، ولا يكتمونها، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، لإبانة فضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٣٤)

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها، وسننها، وأدابها، كرّر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم العبادات، وتكرار الموصولات، لتزليل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذات، إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة، نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (٣٥)

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي أصحاب هذه الصفة ﴿ فِي جَنَّةٍ ﴾ أي مستقرون في قصور عالية في جنان النعيم ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ فيها بأنواع الإكرام.

﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ (٣٦)

﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كتب مفصلاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ﴿ قِبَلَكَ ﴾ أي حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهزئون به ويكذبونه.

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ (٣٧)

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ أي عن يمينه ﷺ وعن شماله ﴿عَزِينَ﴾ أي فرقا شتى جمع عِزَّة، وأصلها عزوة والعِزَّةُ وزان عِدَّة: الطائفةُ من الناس يأتون متفرقين، يقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم، فنزل قوله تعالى:

﴿أَيُّطِعُ كُلُّ أُمْرِي مَنَّهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿أَيُّطِعُ كُلُّ أُمْرِي مَنَّهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان؟ وهو إنكار لقولهم المذكور.

﴿كَلَّا إِنَّآ خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفة قدرة، لا تناسب عالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بالأخلاق الملكية، لم يستعدَّ لدخولها، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة، وهم مكبون على الكفر والفسوق والفجور؟.

﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ﴾ مطالع الشمس ﴿وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ مغاربها، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكر، فأقسم برب المشارق والمغرب.

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي على أن نهلكهم، ونأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرَهُمْ خِيحُوا وَيَلْبَسُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ فَذَرَهُمْ يَحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أي دعهم في غيهم وضلالهم، يتلهون بالدنيا الفانية، حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي ينتظرهم، وهو أمر يحمل بين جنباته الوعيد والتهديد.

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (٤٣).

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿ سِرَاعًا ﴾ أي مسرعين إلى الداعي ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ ﴾ وهو كل ما نُصِبَ وَعُبِدَ من دون الله تعالى (١)، أو إلى شيء منصوب كالعلم والراية ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون الخطأ.

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٤٤).

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ﴾ أي ذليلة أبصارهم، يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي وُعدوا به في الدنيا، وهم يكذبون به ويهزؤون، فالיום يرون عقابهم جزاءهم. والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

\* \* \*

(١) في هذا التشبيه تهكمٌ وسخرية لاذعة، تتناسق مع وصفهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب والأصنام في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى نار الجحيم ليقتمحوها ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي يسرعون، فما أروعه من تصوير!؟

## سُورَةُ نُوحٍ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن قلنا له: أنذر وخوف قومك الكافرين .

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو عذاب الآخرة، أو الدنيا .

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي أنا لكم منذر، موضح لحقيقة الأمور، أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة عليهم .

﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وذروا عبادة الأوثان، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما سبق، فإن الإسلام يمحو ما قبله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لهم بشرط الإيمان والطاعة، أي يمهلكم إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبة ولا عذاب، وأما العمر فمحدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما المراد تأخيرهم لاستكمال أعمارهم، دون عقاب ولا عذاب ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ أي ما قُدِّر لكم، على تقدير بقائكم على الكفر ﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ أي لا يتأخر نزوله. فبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان!! ﴿ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو عرفتم ما يحلُّ بكم من الندامة، عند انقضاء الأجل، ما عبدتم هذه الأوثان.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ أي قال نوح مناجياً ربه، حاكياً ما جرى بينه وبين قومه، بعدما بذل في الدعوة غاية المجهود، قال يا رب إنني دعوت قومي إلى الإيمان ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي دائماً بلا فتور، في الصباح والمساء، والليل والنهار.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي فلم يزددهم دعائي لهم إلا نفاراً وإدباراً.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لكيلا يسمعوا كلامي ﴿ وَأَسْتَغْفِسُوا أَنِّيَابَهُمْ ﴾ أي وتغطوا بشياهم لئلا يبصروني، أولئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا ﴾ عن اتباعي ﴿ أَسْتَكْبَرُوا ﴾ أي شديداً، وذكرُ المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي دعوتهم دعاء جهاراً.

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، أي فدعوتهم تارة بعد تارة، على وجوه متخالفة من السر والعلن.

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ للتائبين، وكأنه لما أمرهم بالعبادة، قالوا: إن كنا على حق فلا نتركه، وإن كنا على باطل، فكيف يقبلنا الله؟ فأمرهم بما يمحو معاصيهم، ويجلب إليهم الخير، ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم، وأحب إليهم، من الفوائد العاجلة.

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ أي المطر ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ كثير الدرّ، أي غزيراً متتابعاً.

﴿ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ أُنْيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ أي يزدكم ويكثركم بالرزق ﴿وَبَيْنَ وَبَيْنَ لَكُمْ جَنَّتٍ﴾ أي بساتين وحدائق غناء ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم وهذا كله مما يميل إليه طبع البشر، وقيل: لَمَّا كَذَبُوا بَعْدَ تَكَرُّارِ الدَّعْوَةِ، حَسِبَ اللهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ، وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا أَنْ يُرْزَقَهُمُ اللهُ الْخَصْبَ، وَالْعَيْشَ الرَّغِيدَ، وَيُدْفَعَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّيْقِ.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ أي ما لكم أيها القوم لا ترهبون عظمة الله وجلاله؟ وهو إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله وقاراً.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الطَّوْرُ بالفتح: الحالة والهيئة، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين في أطوار متباينة، عناصر، ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم علقاً، ثم مُضْغاً، ثم عظاماً ثم لحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر، فإن التقصير في توقير من هذه شؤونه مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي بعضها فوق بعض، كتطابق بناية ذات أدوار.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السماء الدنيا منوراً لوجه الأرض، في ظلمة الليل، ونسبته إلى الكل مع أنه في السماء الدنيا، لما أنها محاطة

بساتر السماوات<sup>(١)</sup> ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ يزيل ظلمة الليل، ويبصر أهل الدنيا في ضوءها وجه الأرض، ويشاهدون الآفاق، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره.

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (١٧).

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أي أنشأكم منها، كما يخرج النبات من الأرض، فاستعير الإنبات للإنشاء، لكونه أدل على الحدوث، والتكون من الأرض، ولم يقل إنباتاً، لأن الإنبات صفة لله تعالى، غير محسوسة لنا.

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (١٨).

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بعد الموت بالدفن ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ منها عند البعث ﴿ إِخْرَاجًا ﴾ محققاً لا ريب فيه، أكَّده بالمصدر، دلالةً على أن الإعادة محققة، لا شك فيها.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (١٩).

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه<sup>(٢)</sup>، فهي فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالفراش والبساط.

(١) صحَّ كون القمر في السماوات مع أنه ليس داخلها، بل تحت السماء الأولى، بدليل قوله سبحانه ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وأقربها إلينا القمر، ذلك لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، كما نقول: عليٌّ في المدينة، وهو في جزء منها، وليس في جميع أنحاء المدينة، فالقمر تحت السماء الأولى، وهو مع جميع الكواكب محاط بالسماوات السبع، فكأنه فيها، ولهذا نقول: إن وصول الإنسان للقمر ممكن، وقد حدث فعلاً، وليس فيه اختراق للسماوات، فتنبه إلى معاني الآيات رعاك الله.

(٢) ليس معنى الآية أن الأرض منبسطة غير كروية، بل المعنى أن الله سبحانه قد جعلها فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالبساط الذي يفرشه الناس، ليست كلها جبلاً =

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقًا ﴿فِجَاجًا﴾ أي واسعة أو مختلفة تنتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي مَعْصُومٌ وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ مناجياً له تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي مَعْصُومٌ﴾ أي تمادوا على عصياني وتكذيبي، مع ما بلغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي استمرَّ فيهم السفلة والفقراء، على اتباع رؤسائهم، الذين أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة.

﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي كبيراً في الغاية، متناهيًا في المكر والدهاء، ومكْرُهُم احتيَالُهُم في الدين، وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام، وصدُّ الناس عن الإيمان به.

= وودياناً، بل فيها السهول الفسيحة، لبني عليها الإنسان ويزرع، وكروية الأرض أمر مقطوع به، عرفه علماؤنا الأقدمون، وقد سئل ابن تيمية كما في الفتاوى ٥٨٨/٦ عن السماوات والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب لا أعلم في علماء المسلمين المعروفين، من أنكرك ذلك، إلا من لا يؤبه له من الجهال، واستدل بآية ﴿كل في فلك يسبحون﴾ وبآية ﴿يكور الليل على النهار﴾ وقال: التكوير هو التدوير. الخ وقال الألوسي ٧٦/٢٩: وكرويتها، كالأمر اليقيني، والكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، أهـ.

﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ  
وَسُرًّا ﴾ (٢٣).

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿ لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي عبادة آلهتكم على وجه العموم ﴿ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ صنم على صورة رجل ﴿ وَلَا سُوَاعًا ﴾ صنم على صورة امرأة ﴿ وَلَا يَغُوثَ ﴾ وهو على صورة أسد ﴿ وَيَعُوقَ ﴾ على صورة فرس ﴿ وَسُرًّا ﴾ هو على صورة نسر، أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما «ودد» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين من قوم نوح..» (١) الحديث.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (٢٤).

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا ﴾ أي الرؤساء ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ أي هلاكاً ودماراً.

﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ (٢٥).

﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ ﴾ أي بسبب خطيئاتهم المعدودة ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ بالطوفان ﴿ فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ المراد عذاب القبر فهو عقب الإغراق، وإن كانوا في الماء،

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦٦٧/٨.

فالأية دالة على إثبات عذاب القبر، لأن فاء التعقيب تدل على هذا، ولا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلاً بطل معنى الفاء، التي تفيد معنى الترتيب والتعقيب، فإن قيل: إنا نشاهد أنهم ماتوا في الماء؟ فالجواب إن هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ، لما أن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول العمر، ثم أجزأه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير متبدل، فالإنسان عبارة عن ذلك الباقي، وتنكير النار لتعظيمها وتهويلها ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أي لم يجد أحد منهم، واحداً من الأنصار، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وهذه الآية حجة على كل من عوّل على شيء غير الله تعالى.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي أحداً يدور في الأرض، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال ما بالدار ديار.

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ ﴾ أي إن تركتهم يارب ولم تهلكهم ﴿ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ عن طريق الحق ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي إلا من سيفجر، وسيكفر، وإنما قاله لاستحكام علمه، بما يكون منهم، ومن أعقابهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ توجه نوح عليه السلام لربه، بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فبدأ بالدعاء لنفسه

أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم لمن زار بيته ثالثاً، ثم عمّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا توجيه لكل مسلم أن يدعو بالمغفرة لنفسه، ولوالديه، ولجميع إخوانه من المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا نُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ أي إلا هلاكاً وخساراً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم جميعاً. والله أعلم بمراده.

وصلّى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

\* \* \*